بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى الفطرية

من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام

تأليف

د. فريد الأنصاري

رحمه الله

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ
ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ
ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ ۞مُنِيبِينَ
إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ
مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ
دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ
بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢ ﴾
[الروم: 29-32]

فهرس المحتويات

إهداء..

إلى حُمَّالِ رِسَالاَتِ القُرآن..

السَّالِكِينَ بِهَا إلى اللهِ، تَعَبُّداً وبَلاَغاً..

الْمُكَابِدِينَ بِهَا مِحَنَ هذَا الزَّمَان!

إلى بَلاَبِلِ اللَّيالِي الْخُضْر..

الْمُرَتِّلَةِ خَوْفَهَا ورَجَاءَهَا بِمَحَارِيبِ السَّحَر!

إلى طَلاَئِعِ الْخُيُولِ الغُبْر..

الْمُورِيَةِ بِسَنَابِكِهَا لَهِيبَ الفَتْحِ الْمُبِين

سَلاَماً وأمَاناً للعَالَمِين!

إلى أجْيَالِ الشَّبَابِ الصَّادِقِ الْمُؤْمِنِ.. ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ! وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً!﴾([1])

إِلَيْكُمْ سَادَتِي.. أُهْدِي هَذِهِ اللَّوعَات..!

خادمكم المحب: فريد الأنصاري.

---

[1] الأحزاب: 39.

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده؛ حتى أتاه اليقين.

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد، فهذه خلاصة عملية مأخوذة من كتابنا الموسوم بـ: "**الفطرية**: **بعثة التجديد المقبلة، من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام**"، اقتصرنا فيها ههنا على الجانب العملي دون التنظيري؛ وذلك قصد تيسير التطبيق لحقائق "المنهاج الفطري"، للراغبين في الدخول بمدارج التزكية القرآنية بهذا المشروع الدعوي. وبيان ذلك هو كما يلي:

الفطرية دراسة في المفهوم والأركان

الفِطْرِيَّةُ: مصدر صناعي أخذناه من الفطرة. وهو دال – بمصدريته تلك – على معنى دعوي. أي على "فِعْلٍ" واقع في الفطرة ومن أجلها، سواء في النفس أو في المجتمع. ومن هنا سَكَكْنَاهُ مصطلحاً نعبر به عن مشروع دعوي عام، وعن تصور كلي للعمل الإسلامي، نرجو أن يوفقنا الله إليه. وهو ما نتوسل إلى محاولة ضبطه – في هذه الورقات – بمسمى الفطرية.

ولذلك جعلنا لها حَدّاً، وستةَ أركانٍ، وثلاثةَ مَسَالِكَ.

فأما حَدُّهَا فهو:

إِقَامَةُ الوَجْهِ لِلدِّينِ حَنِيفاً، خَالِصاً للهِ؛ وذلك بِمُكَابَدَةِ الْقُرْآنِ ومُجَاهَدَةِ النَّفْسِ بِهِ تَلَقِّياً وبَلاَغاً؛ قَصْدَ إِخْرَاجِهَا مِنْ تَشَوُّهَاتِ الْهَوَى إِلَى هُدَى الدِّينِ الْقَيِّمِ؛ ومِنْ ظُلُمَاتِ الضَّلاَلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ بِاللهِ.

فبناء على هذا التعريف؛ تكون "الفِطْرِيَّةُ" عملية إصلاحية وجدانية، تقوم أساسا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلا على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوهات تصورية وسلوكية، في شتى امتداداتها العمرانية.

ذلك مقتضى الآيات – عِبَارةً وإشارةً وسياقاً – من قوله تعالى، الجامع المانع في هذا المعنى العظيم: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَن اَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا. لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ. وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.﴾[الروم:29-31].

و الفِطْرِيَّةُ دائرة من حيث المنهج على تلقي رسالات القرآن، من خلال تلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً، إذ لا تَخَلُّقَ للنفس إلا بمعاناة! ولا تخلص لها من أهوائها إلا بمجاهدة! فالقرآن هو خطاب الفطرة، من حيث هي راجعة إلى "إقامة الوجه للدين"، (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا). وقد كان ذلك – منذ

كان – بتلقي آيات القرآن، وما تجدد قط في التاريخ إلا بتجديد التلقي لها، بناءً وتربيةً وتثبيتاً، على مُكْثٍ من الزمان.

ذلك هو المنهج الدعوي الأصيل الذي يصرح به القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[الفرقان: 32]. ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾[الإسراء: 106]. وتلك هي الحكمة الأولى من تنجيم القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة!

والمصطلح المفتاح لمنهج التعامل مع القرآن، في مدرسة "الفطرية"، هو مصطلح: "**التلقي**". لأن التربية القرآنية في مجالس القرآن لا تكون إلا **بتلقي الرسالات الكامنة في الآيات!** تلك الرسالات هي التي تتضمن حقائق الإيمان المقصودة بالتخلق والتحقق، في طريق الدعوة والسير إلى الله صلاحا وإصلاحا.

فمن قرأ سورة الإخلاص ولم يتخلق بالإخلاص، ولا هو تحقق به، فمعناه أنه لم يَتَلَقَّ سورةَ الإخلاص! ولا هو ممن تلاها حقّاً، ولو ظل يرددها آلاف المرات! (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ!)(البقرة: 121). وكذلك من قرأ المعوذتين ولم يتحقق بما فيهما من أمان، ولا نزلت عليه سكينتهما، فإنه لم يتلق شيئا من السورتين! ومن قرأ سورة الفاتحة ولم يجد نفسه قد تخلق بالحمد، ثم اندرج بمدارج "إياك نعبد وإياك نستعين"؛ طلباً لهداية الرضى والتثبيت، فإنه لم يتلق الفاتحة بعد!

بهذا المنهج إذن تتلقى عزيمتُك رسالةَ الكلمات، فتشعر بمعاناتها، ويتلقى قلبُك هدايةَ الآيات، فيشعر بمكابداتها، وتجد نفسَكَ أنك تترقى حقيقة بمدارج الإيمان، تشاهد ذلك وتبصره! فلا يمضي عليها إلا وقت وجيز حتى تراها — بإذن الله – قد تحولت إلى منزلة أعلى من منازل الصلاح والإصلاح؛ فتتحول المعاناة إلى لذة، وتصير المكابدة إلى حلاوة! ويصير الخوف إلى أمان. وإنما الموفَّق من وفقه الله.

تلك هي الفطرية، وذلك هو منهاجها لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً!

وأما **أركانها فستة** – هي مصطلحاتها المفتاحية – وهي:

1– الإخلاصُ مجاهدةً

2- الآخِرةُ غايةً

3- القرآنُ مدرسةً

4- الربانيةُ برنامجاً

5- العلمُ طريقةً

6- الحكمةُ صبغةً

فأما الركن الأول، وهو:

- **الإخلاصُ مجاهدةً**: فهو فَصُّ الفطرية، ومُحُّهَا الذي تنطوي عليه، بما هي محاولة لإعادة بناء النفس على ما بُنيت عليه أول ما خُلقت، وقد كان أول بنائها على الفطرة، وقد سبق أن أصل الفطرة الإنسانية إنما هو إخلاص التوحيد لله رب العالمين. فكان مدارُ الفطرية - دعوةً وتربيةً - إنما هو على إفراد الله جلَّ جلالُه بالعبودية، وحده دون سواه، ونبذ سائر ضروب الشرك والشركاء، ظاهرا وباطنا. فسائر الأعمال والعبادات في الإسلام إنما هي خادمة لهذا الركن الركين، وفروع لهذا الأصل العظيم. هو غايتها، وهو مقياس صحتها وفسادها. ولذلك وجب أن يُجعل الإخلاصُ -كما جعله الله في كتابه، وبيَّنَهُ الرسولُ في منهاجه - مدارَ الدين والدعوة جميعا، وإلا صار العمل الإسلامي كله إلى انحراف وضلال!

إلا أن إخلاص التوحيد ليس مجرد معلومات تُلَقَّن، ولا منظومات تُستظهر، بل هو حقيقةٌ إيمانيةٌ عظمى، وخُلُقٌ قرآني عميق، لا يُنال إلا بمجاهدة ومكابدة! ولذلك قيدنا ركنيته ببيان طريقة التحقق به؛ بقولنا: "الإخلاصُ مجاهدةً". إذ مقتضاه راجع إلى معنى السير إلى الله على طريق الفناء في طاعته؛ لتحقيق خالص العبدية له وحده جل علاه، حتى لا يبقى منك شيء لسواه! فتجعل كل رغائبك وكل أهوائك وكل ذراتك، الظاهرة والباطنة، فانية في قصده هو جل جلاله، حتى يتحقق لك دوام الشهود لعبديتك الكاملة له، فلا تكون في شيء من عبادتك وعاداتك إلا بالله وله! ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ. لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: 162-163].

هذا هو المقصد الأساس من المدرسة القرآنية، والغاية الكبرى لبرنامج الربانية، والجامع المانع لمفهوم الفطرية. فمن أراد الإخلاص حقيقةً، وجب أن يتحقق بطريقة التخلق بمقامه،

ومعراج الرقي إلى منزله، وإلا كان ممن يتمنى على الله الأماني! وليس لذلك دون مكابدة القرآن ومجاهدة النفس به من سبيل! وإنما الموفق من وفقه الله.

وأما الركن الثاني، فهو:

– **الآخِرةُ غَايةً**: وهو ميزان الداعية المؤمن لتقويم صفاء دينه، وبوصلته لضبط مسار دعوته. وما ارتبط شيء في كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما ارتبط ركن الإيمان بالله بركن الإيمان باليوم الآخر! على نحو ما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[البقرة: 232]. وهو في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى! إذ الإيمان بالآخرة هو حادي العبد إلى تحقيق منزلة الإخلاص في إيمانه بالله جل علاه. ولذلك كان هذا البيان النبوي العجيب في رسم طريق الآخرة للمؤمنين، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وجمعَ له شملَه، و أتته الدنيا وهي رَاغِمَةٌ! ومَنْ كَانَتِ الدُّنيا هَمَّهُ جعلَ اللهُ فَقْرَهُ بين عينيه! وفَرَّقَ عليهِ شَمْلَهُ! ولم يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ!»([2])

فالحضور الأخروي الدائم في وجدان المؤمن يجعله آمنا من فتن الشهوات، ومن بريق الإغراءات، التي تفسد الدعوات وتدمر الحركات! وعدمُ العض على هذا المعنى العظيم في الإسلام بالنواجذ مُلْقٍ بالمرء – أنى كان موقعه الدعوي في العلم والعمل – إلى متاهات الضلال! ذلك أن قضية الحياة الآخرة هي جوهر العقيدة الإسلامية، ومآل العالم الوجودي كله! ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ!﴾[العنكبوت:64].

وإنما المؤمن الصادق بهذا الدين – بله الداعية إليه – رَجُلٌ أخروي بالقصد الأول! ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ قَلِيلٌ!﴾[التوبة: 38].

وتتميز الفطرية بأنها تجعل لكل حقيقة من حقائق الدين ما جعله الله لها من الحجم والقَدْرِ، في الصورة الكلية للإسلام ديناً ودعوةً. لأن ذلك من خصائص الفطرة، ومن صفاتها الذاتية، بما هي الهيأة الأولى للدين، قبل أن يصيبها التغيير والتحريف. ومن هنا كان الركن

[2] أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعا. وصححه الألباني، حديث رقم : 6510 في صحيح الجامع.

الثاني من أركان الدعوة الفطرية: "**الآخِرةُ غايةً**"، وقَيَّدْنَا بالغاية؛ حتى لا يبقى هذا المعنى حبيس التصورات النظرية في الجدل الكلامي، بل ليصبح هدفا محددا واضحا، لكل عمل إسلامي يُرْجَى به نيلُ رضى الله، والفوز بالنعيم المقيم في جنات الخلد، والنجاة من عذاب الجحيم. ألاَ جعلني الله وإياك يا صاح من الفائزين بنعمته، الداخلين في رحمته! ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ!﴾[الشعراء:88-89].

وأما الركن الثالث، فهو:

- **القرآنُ مدرسةً**: وهو الصبغة العامة للفطرية، بما هي قائمة أساسا على تلقي رسالات القرآن، سواء عبر برامج الربانية أو عبر مجالس القرآن. وقد تبين ألا إمكان لإصلاح الفطرة الإنسانية إلا بالقرآن، لأنه إنما أُنْزِلَ أساسا لهذا القصد الرباني العظيم. فالقرآن – بما هو كلامُ خالقِ الإنسان، العليم بأسرار تكوينه – هو كتاب إصلاح الفطرة الإنسانية وصيانتها. ومن هنا كانت الفطرية مدرسة قرآنية بالدرجة الأولى.

وأما الركن الرابع، فهو:

- **الربانيةُ برنامجاً**: وهو أحد مسالكها التربوية الرئيسة، الهادفة إلى تخريج طبقة الدعاة المربين، وهم طائفة الربانيين الحاملين لرسالة القرآن، المشتغلين بدعوته في الناس أجمعين، بما يقتضيه مفهوم الربانية من مقام إيماني عظيم، وفقه دعوي متين. ولذلك جعلنا لها برنامجا قرآنيا خاصا، استقريناه من مجموع الآيات الدالة على أخلاق الربانيين، وخصوص منازلهم الإيمانية، وما تقتضيه من العلم والحكمة، معزَّزاً بالبيانات النبوية، الرامية إلى تخريج أئمة الهدى في الدين.

وأما الركن الخامس، فهو:

- **العلمُ طريقةً**: وهو راجع إلى كون العلوم الشرعية أساسا، ومناهجها الاستدلالية والاجتهادية، وقواعدها النقدية والتأصيلية، هي المسلك الأساس لبناء علم الناس بالله وبدينه، عقيدةً، وشريعةً، وتربيةً وسلوكاً. فلا مكان في الفطرية للخرافية، ولا للأهوائية الشخصانية. ومن هنا وجب أن تحمل رسالات الفطرية، لكل المسلمين، الحد الأدنى من العلم الشرعي، الذي لا يُعبد الله إلا به، عقيدةً وشريعةً. وذلك هو المسمى عند العلماء بـ"المعلوم من الدين بالضرورة"، أو "ما لا يَسَعُ المسلمَ جهلُه". ثم تحرض – في الوقت نفسه – نبغاء الشباب

على تحقيق واجب الوقت، من التفرغ لطلب العلم الشرعي، بشروطه التخصصية؛ وذلك لمد الأمة بأجيال العلماء الربانيين، على ما بيناه في كتابنا "مفهوم العَالِمِيَّةِ". فذلك هدف استراتيجي، وجب أن يكون عمودا فقريا، في كل مشروع دعوي، انتصب لتجديد الدين بصدق وبجدية. وما التوفيق إلا بالله.

وأما الركن السادس، فهو:

– **الحكمةُ صبغةً**: وهو صمام الأمان لسير العمل الدعوي. وقد كان غياب الحكمة سببا رئيسا في هلاك كثير من الدعوات واندثارها، أو انحرافها. والحكمة في العمل الدعوي هي: "اتخاذ الإجراء المناسب، في الوقت المناسب، بالقَدْرِ المناسب". فهي إذن راجعة – في النهاية – إلى كلمة واحدة جامعة هي: حُسْنُ التَّقْدِيرِ والتدبير.

ويُتَحَقَّقُ منها بأمرين، أحدهما كسبي والآخر وهبي. فأما الكسبي فهو: الفقه في الدين بمعناه المنهجي، وخاصة منه ما يسمى عند الأصوليين بفقه "تحقيق المناط" عَامِّهِ وخاصِّه([3])، ويدخل فيه فقه الأولويات وفقه الموازنات، وما يندرج فيهما من قواعد التدرج والتلطف والتترس.

وأما الوهبي فهو: راجع إلى التخلق بمقامات التقوى والورع، إذ هي سبب وضع المؤمن في منزلة التعرض لنفحات الله، التي تفتح البصائر وتنير السرائر. وهو معنى الفرقان في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الأنفال: 29]. وكذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 282]. وفي هذا السياق أسند الله تعالى فعل إتيان الحكمة لنفسه تعالى؛ لنفي مطلقِ كسبيتها عن الإنسان، وهو قوله تعالى: ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[البقرة: 269].

وقد كان شيخ المقاصد أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله – بما فتح الله له من العلم والحكمة – من أمهر العلماء الربانيين فقهاً لهذه الحقائق وتعبيرا عنها، بشقيها الكسبي والوهبي. وقد وردت عنه في ذلك إشراقات عجيبة، في نصوص شتى من كتابه الرائد الموافقات. ولنا أن نختار منها هذا النص الفريد، قال – رحمه الله – في وصف العالم الرباني

[3] انظر تفصيل ذلك – إذا تشاء – في كتاب الموافقات للشاطبي: 97/4.

الحكيم أنه: (لاَ يَذْكُرَ للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهي! بل يربي بصغار العلم قبل كباره. **وقد فرض العلماء مسائل، مما لا يجوز الفتيا بها، وإن كانت صحيحة في نظر الفقه!** (...) وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها؛ **فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله! فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة؛ فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم. وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ؛ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية!**)([4]).

وهذه منزلة من العلم الرباني، وجب على الداخل في مدرسة الفطرية أن يحرص على التحقق بأسبابها، والتخلق بشروطها؛ عسى أن يكون من أهلها، ولو على مستوى المنهج في المجال الدعوي، إن لم يكن من أهل الاختصاص الشرعي والاجتهاد الفقهي. ومدرسة القرآن بما هي مَشْرَبٌ رباني صاف، كفيلة بتحقيق ذلك للصادقين من طلابها، بما يجعل الحكمة – بإذن الله – صفة جوهرية في التصرفات الدعوية لأبنائها؛ ولذلك جعلنا الركن الأخير من أركانها: (الحكمة صبغةً). كذلك، والله الموفق للخير والمعين عليه.

تلك إذن هي أركان الفطرية الستة. ونحسب أن الدخول في برامجها القرآنية، من خلال مسالكها التربوية، كفيل بالتحقق التلقائي بها، ركنا ركنا. وإنما ذكرناها ههنا معزولة من باب ذكر المقاصد قبل الوسائل؛ حتى تكون تلك عونا على حسن تطبيق هذه. والله المستعان.

المسالك التربوية للفطرية

وأما **المسالك التربوية للفطرية فثلاثة**، وهي:

1- **مجالس القرآن لتلقِّي حقائق الإيمان، والتخلق بمقتضياتها.**
2- **بلاغ رسالات الله بدعوة الناس إليه.**

[4] الموافقات: 4/190-191

3- رباطات الفطرية، بما تتضمنه من صلوات وأوراد معنوية؛ للتغذية الفردية.([5])

وبيان ذلك هو كما يلي:

الْمَسَالِكُ التربويةُ لتجديدِ بناءِ الفِطْرَةِ، هي: مجموعة من المسالك التعبدية التي تقود العبد إلى الله، فَتُقَوِّمُ مَا شَاهَ من أخلاقه وطباعه، وتُصلح ما فسد من مزاجه وأفكاره؛ ليستقيم على خالص فطرته، وصفاء سريرته، عبداً خالصاً لله، ثم ترتقي به عبر مدارج الربانية؛ إلى أن يتخلَّقَ بِمَقَامِ الصِّدِّيقِيَّةِ – إن شاء الله – ويتَحَقَّقَ به.

وهي ثلاثة مسالك، نوردها كما يلي:

المسلك الأول: الدخول في مجالس القرآن

وهي مجالس تربوية لِتَلَقِّي آيات القرآن، والتخلق بأخلاقها وبحقائقها الإيمانية، والتحقق بها، تعلما وتعليما، وتدبراً ومدارسةً. وهي تقوم على وظائف النبوة الثلاث، التي هي:

1- التلاوة بمنهج التلقي

2- التزكية بمنهج التدبر

3- تعليم الكتاب والحكمة بمنهج التدارس([6]).

ويستعان على إعداد القلب وتهيئته للتلقي بقيام الليل، ولك أن تختار لنفسك ليلة – على حسب ظروف عملك – تقوم فيها بنحو مائة آية من القرآن([7])، مرة كل أسبوع على

---

[5] جعلنا ذلك فيما كتبنا من قبل – بكتابنا بلاغ الرسالة القرآنية – في ثلاث خطوات، بصيغة: (اغتنام المجالسات، والتزام الرباطات، وتبليغ الرسالات). وكان الكلام عن "الرباطات" مقصورا على التزام المساجد، لكننا توسعنا ههنا بجعلها متبوعة بأعمال أخرى من أوراد الفطرة الضرورية للمؤمن فعلاً وتركاً، على ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿اُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ! إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ! وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ! وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ!﴾(العنكبوت: 45). وبالله تعالى التوفيق.

[6] قد بينا ذلك مفصلا في كتيب "مجالس القرآن": 35-44

[7] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قام بعشر آيات لم يُكْتَبْ من الغافلين! ومن قام بمائة آية كُتِبَ من القانتين! ومن قام بألف آية كُتِبَ من المقنطرين!) رواه أبو داود وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

الأقل، عسى أن يصير ذلك لك عادةً يومية، تتنقل خلالها عبر منازل القرآن. وإذا أمكن أن نتحدث – في بداية الطريق – عن "تحقيق المناط التربوي"؛ فإنه يحسن الإكثار من القيام بسورة الفرقان في الركعة الأولى، وبسورة الحديد في الركعة الثانية، أو بسورة الملك؛ وذلك لما لهذه السور وأمثالها من ترياق عظيم لأمراض هذا العصر العصيب!

كما يحسن أن تكون سورةُ الفرقان خاصة، مما يُبدأ بتعلمه من القرآن الكريم، حفظاً ومدارسةً وتدبراً؛ لأنها باب عظيم من أبواب القرآن، ومدخل فسيح من مداخله الكبرى. مَنْ تَخَلَّقَ بحقائقها الإيمانية، وتحقق بمنازلها الربانية؛ نال من كنوزه الوفيرة فضلا عظيما! إذ فيها من الأسرار العَجَبُ العُجَابُ، عيونا تتدفق بالأنوار واللطائف والبركات، من بدايتها إلى نهايتها؛ بما يكفي السالكَ ويُمَكِّنُهُ – بعد تخلقه بأخلاقها وتحققه بمنازلها – أن يلج إلى مسالك القرآن جميعها! ويكون من (عباد الرحمن) حقيقةً!([8])

ويلحق بهذا المسلك فرع أصيل، وهو مجالس قرآنية لتخريج الدعاة القائمين على مجالس القرآن في الناس، والمؤطرين لها. يعتمدون فيه برنامجا تربويا خاصا، منتقى من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وهو:

– **برنامج الربانية لتخريج الدعاة**

إذ **الربانية**: هي **مرتبة الإمامة في مجاهدة النفس بالقرآن، على الالتزام بحقائقه الإيمانية، والتخلق بِحِكْمَتِهِ الرحمانية؛ إخلاصاً للهِ أولاً؛ حتى تفنى في دعوتها عن كل حظوظها، فلا يقوم شيء منها إلا لله وبه! ثم شهادةً بذلك على الناس، تربيةً ودعوةً، ثم صبراً واحتساباً.**

[8] يكفيك من ذلك إشارةً أنَّ اسمها هو أحد أهم أسماء القرآن! ولا سورة سميت بمثل اسمها، مع أن أسماء القرآن الواردة بنصه كثير. ثم إن موقعها منفتح على أواسط القرآن، ولذلك فهي تدخل بصاحبها إلى ساحاته وباحاته؛ وتفضي به إلى معارجه ومقاصده. ومن هنا كانت آياتها كلها تدور على محاور القرآن الكبرى، بدءا بأصول الإيمان وحقيقة التوحيد والإخلاص، فدلائل النبوة، وحقائق البعث ومشاهد القيامة، والوعد والوعيد، وموازين العدل، وعِبَرِ القصص، ثم حِكَمِ التشريع وجماله. ولذلك كانت خاتمتها تحمل من ثمار الإيمان ومدارجه ما يرتقي بالعبد إلى منازل الأولياء والصدِّيقين! وما التوفيق إلا بالله.

و**الربانيون** هم الأمناء على هذا المنهاج الدعوي، والقائمون به في المجتمع، والحاملون رسالته، تربيةً ودعوةً، على ما قرره القرآن الكريم في غير ما آية، من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ.﴾[آل عمران:79]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَ**الرَّبَّانِيُّونَ** وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾[المائدة:44].

وكذا قوله سبحانه: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ **الرَّبَّانِيُّونَ** وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[المائدة: 63].

وقد أورد الإمام البخاري – رحمه الله – في صحيحه قولاً تفسيريا لابنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – قال: ("كُونُوا رَبَّانِيِّينَ": حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ). وقال الإمام البخاري بعد ذلك شارحا: (وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ: الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ.)([9]).

ومن هنا فالأمة في حاجة ماسة إلى تخريج طائفة عريضة من هذه النماذج الدعوية، وبثهم في كل منطقة وقطاع؛ للقيام بدور تجديد الدين، على موازين العلم والحكمة([10]).

المسلك الثاني: بلاغ الرسالات.

وهو راجع إلى واجب الالتزام الدعوي للإنسان المسلم. وذلك لِمَا تعلق به من أهم صفات ما انتسب إليه من الإسلام: "الرسالية". قال – صلى الله عليه وسلم – في أمر مطلق لكل الأمة: «بَلِّغُوا عني و لو آيةً!»([11]). ومن هنا كان المجتمع الإسلامي كله جماعة دعوية بطبيعته، وحياة إصلاحية بفطرته. إنه منذ أعلن أنَّ محمداً رسول الله، تقلد – بمقتضى عقيدة الاتباع – مهمة الدعوة إلى الله. فليس عبثا أن يحض النبي صلى الله عليه وسلم –

---

9 صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

10 قد أوردنا بعض المعالم المنهجية؛ لتكوين شخصية الداعية الرباني، في تمهيد "برنامج الربانية".

11 أخرجه البخاري.

بكل وسائل التحريض والتشجيع – على الدعوة إلى الخير والهدى، كما في قوله: «فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ!»([12]).

ومن هنا شهادة الله بالخيرية لهذه الأمة، في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[آل عمران:110]. إنها صفة عامة في كل من أسلم لله الواحد القهار، كل ينال منها على قدر طاقته ومسؤوليته.

لكن لا بد من بيان أن البلاغ اليوم في المسلمين ليس بلاغ (خبر) هذا الدين. فذلك أمر قام به الأولون. وما بقي اليوم صقع في الأرض لم تبلغه قصة الرسالة الإسلامية، على الجملة. وإنما المسلمون اليوم في حاجة إلى "إبصار". إبصار الحقائق القرآنية التي تتلى عليهم صباح مساء، وهم عنها عمون، على نحو ما وصف الله سبحانه في قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[الأعراف:198]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف:105]. فالبلاغ الذي نحن في حاجة إليه إنما هو بلاغ التبصير، لا بلاغ التخبير.

وأما مادته فما ذكرناه من أصول الرسالة القرآنية، وبلاغات القرآن([13]): من اكتشاف القرآن العظيم، والتعرف إلى الله والتعريف به، واكتشاف الحياة الآخرة، واكتشاف روح الصلوات وحفظ الأوقات، وحقيقة الدعوة إلى الخير، وحكمة اتباع السنة؛ تزكيةً وتعلماً وتحلماً. ومفاتيح ذلك كله في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتلك هي وظيفة مجالس القرآن.

ومعلوم أن من أهم الوسائل الدعوية ذات الأثر العميق، خاصة في هذا العصر، إنما هي تأسيس "مجالس القرآن" كما وصفنا وبينا، وتكثير حِلَقِهَا وسوادها في الأمة؛ حتى تصبح جزءا أساسيا من حركة النسيج الاجتماعي العام، وتلون كل شرائحه الاجتماعية، على اختلاف طبقاتها وقطاعاتها. فالداعية المسلم يدعو إلى الله كلَّ الناس، وفي كل مناسبة، ومن على كل منبر! لكن "**مجلس القرآن**" في النهاية، هو أساس التزكية والتعليم، ومحضن التربية

---

12 متفق عليه.

13 هي فصول كتابنا "بلاغ الرسالة القرآنية".

والتكوين، وضمان السير إلى الله. ومن هنا كان مسلك "بلاغ الرسالات" إنما يتم بالرجوع إلى مسلك "مجالس القرآن" تأسيساً وتوسيعاً.

المسلك الثالث: رِبَاطُ الفِطْرِيَّةِ، بما يتضمنه من صلوات وأوراد معنوية؛ للتغذية الفردية. وما يلزم عن ذلك كله من فعل الصالحات وترك الموبقات.

فرباط الفطرية: هو أعمال واجبات، وتروك لازمات، وأذكار مندوبات، مما صح أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – التزمه وداوم عليه. فالرباط الفطري هو معراج المؤمن الدائم إلى الله، وحصنه المنيع من كل فتنة أو آفة! ولذلك فهو يتضمن بالأساس، أفعالاً واجبةً وأخرى محرمةً – من المعلوم من الدين بالضرورة – يلتزمها المؤمنُ فعلاً وتركاً أبداً، على أنها أذكار معنوية تُذَكِّرُهُ أبداً بالله؛ إذْ لا يصح سيره إلى الله إلا بها، كما سترى بمحله إن شاء الله. والغايةُ منه إنما هي إصلاح صورة النفس بتهذيبها وتشذيبها، وكذا تزكيتها بتغذية لطائفها؛ حتى تعود إلى أصل فِطْرَتِهَا.

وقد سمى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الاشتغال بالصلوات الخمس، وبكل ما تعلق بها من وضوء، ومشي إلى المساجد، وما انبنى عن ذلك كله من سوابق ولواحق من الاستعدادات والعبادات: "**رِبَاطاً**". ففي الحديث الصحيح من رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ! **فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ!**»([14]).

فكون الصلاة والاشتغال بمقدماتها وتوابعها "**رباطا**"، بهذا الشمول التربوي الجامع، إنما هو باعتبارها صلةً للعبد بربه، وعاصما له من الزلات والغفلات! فهي لذلك فعلٌ وتركٌ. وهي ذكر دائم لله. فذلك هو "الرباط". وتلك هي غاية كل فعل تربوي في الإسلام. ولذلك كانت الصلاة أعظم شعيرة عملية في الدين! فهي أم الالتزامات والأوراد، وأساس كل الأذكار اللفظية والمعنوية جميعا. فالصلاة إذا تحقق بها العبد صدقا، وتخلق بمقاصدها الشرعية حقا – كانت عبادة جامعة مانعة! واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿اُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ

---

[14] رواه مالك في موطئه ومسلم في صحيحه، كما رواه أحمد والترمذي والنسائي.

الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ! إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ! وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ! وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ!﴾[العنكبوت: 45]. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ!»

ومن هنا فإننا لم نعتمد في هذا المسلك سوى منهاج السنة النبوية الصحيحة. التي اشتغلت – في مجال إصلاح النفس – بالمعاني أساساً. حيث إنَّ الذِّكر على نوعين، هما: الذِّكْرُ العَدَدِيُّ والذِّكْرُ المِعْنَوِيُّ. فالعددي: هو الذي يرهن فيه المسلم نفسه بأعداد هائلة من الأذكار، تسبيحا وتهليلا واستغفارا... إلخ، بلوغا إلى الآلاف! وعلى هذا كان أغلب طرق الصوفية من المتأخرين خاصة. وتلك طريق طويلة محفوفة بالمخاطر! وقلما تصل بصاحبها إلى بر الأمان.

وأما النوع الثاني فهو: الذِّكْرُ الْمَعْنَوِيُّ.

وهو قائم أساسا على قصد ربط المؤمن بربه أبداً، بالأقوال والأفعال والتروك. حيث يجتهد العبد ليحقق في كل حركة، وفي كل كلمة، وفي كل هيأة، من سائر الأفعال والتروك التعبدية التي يدخل فيها، معناها الذي شُرعت له؛ فيكون بذلك في أعلى مقامات الذِّكْرِ. ولذلك كانت الصلاة مثلا بهذا المعنى ذِكْراً، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[طه: 14]، وكان القرآن أيضا بهذا المعنى ذِكْراً، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: 44]، كما كان ترك الكبائر والموبقات —كلما عرضت للمؤمن – ذِكْراً أيضا؛ لأن الوقوع فيها آنئذ لا يكون إلا غفلة منه عن إيمانه، وهو ضد معنى الذكر. ومثاله الواضح ما ورد في الحديث النبوي المتفق عليه، من قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن!»([15])، وذلك لما لهذه الأفعال والتروك وأضرابها جميعا من تغذية قوية للقلب، وإمداد له بحقائق الإيمان، وهو معنى الذكر وغايته.

---

[15] متفق عليه.

فإذا أُخِذَ الذِّكْرُ العددي بموازينه الثابتة في السنة الصحيحة، وطُبق على هذا الميزان، كان ذكرا معنويا أيضا، وكانت عدديته تابعة لهذا القصد. لأن الأذكار النبوية التي بنيت على أعداد معينة إنما جعلتها وسيلة لتعميق المعاني أساساً، ولضمان تغذية القلب بها. فالأعداد فيها تابعة للمعاني والعكس غير صحيح.

وذلك هو الذكر السُّني النبوي. ولذلك ما ثبت في السنة منه إلا ما يدور على المرة الواحدة والثلاث ثم العشرة حتى المائة، على أقصى تقدير. ولم يرد ما يجاوز ذلك ليبلغ المئات بله الآلاف! إذ القصد الشرعي من الذكر إنما هو ربط القلوب بالله، والترقي بها عبر مدارج الإيمان. وهذا إنما يتم بالتحقق والتخلق بالحقائق الإيمانية والصفات الربانية. ولا يكون ذلك إلا بالإبحار في سفائن المعنى، تركيزا على قليل الألفاظ، المكتنزة بالحقائق الروحية، والمتدرجة بالعبد تربيةً وتزكيةً في طريق السير إلى الله، بما تتيحه له من التدبر والتذكر، والتغذية الإيمانية المنقطعة النظير، التي تقوم بإعادة بناء عمرانه الروحي، وترميم حصنه النفسي. عسى أن ينجح في ابتلاءاتها في مجال التدافع الاجتماعي، والافتتان الدنيوي من أمور المال والأعمال، وسائر معارض الشهوات ومواطنها.

وعلى ذلك المنهاج كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يدرب أصحابه ويعلمهم. وشواهده في السنة كثير، بل ذلك هو فعله – عليه الصلاة والسلام – في نفسه بنفسه. ويكفينا من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، من حديث أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنها أن النبي – صلى الله عليه وَسَلَّم – خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها – يعني وهي تُسَبِّحُ – ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة على حالها، فقال: «ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم. فقال النبي صلى الله عليه وَسَلَّم: «لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزِنَتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: "سبحان الله وبحمده، عددَ خلقِه، ورِضَا نفسِه، وزِنَةَ عرشِه، ومِدَادَ كلماتِه!"»([16])

ومعلوم أن الكثرة من ذلك تُفْقِدُ اللفظَ حقيقتَه في النفس، وتخرجه عن منهاج السنة النبوية؛ فتحتجب أسرارُه وتغيب أنواره! إذْ أن تضخيم جانب من جوانب الدين – بما يخرجه

16 رواه مسلم.

عن أصله المسنون - يؤدي قطعا إلى ضمور جانب آخر، ربما كان أوجب في الدين وأهم. والحكمةُ إنما هي إعطاء كل شيء قَدْرَهُ الذي أعطاه الشرع له.

وعلى هذا المنهج بنينا ما جمعناه من "**أوراد الفطرة**" للعمل اليومي، في "**رباط الفطرة**" الدائم. وهو أربعة التزامات:

الالتزام الأول: شهود الصلوات الخمس والتزام رباطاتها

وذلك بمجاهدة النفس في كل صلاة من الصلوات الخمس؛ للتحقق من مقام العبودية خشوعاً فيها؛ حتى تجد فعلا أنك بين يدي الله جل جلاله! تناجيه ثم تركع له وتسجد، بما هو ربك ورب العالمين، وبما أنت عبده المتبتل بين يديه! فهذا جوهر هذا المسلك وحقيقته. فكل صلاة ضاع منها شهود المناجاة لله رب العالمين، فَقَدَتْ معنى كونها مسلكا تعبديا، ووردا تربويا. بل فقدت معنى كونها صلاة على الحقيقة! فعن أَنَسٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ أحَدَكُمْ إذَا قَامَ في صَلَاتِه فإنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ!»([17]) وفي رواية أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما: «إنَّ الْمُصَلِّيَ يُنَاجِي رَبَّهُ؛ فَلْيَنْظُرْ بِمَا يُنَاجِيهِ!»([18]). وفي صيغة لأبي هريرة خاصة: «فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يُنَاجِيهِ!»

وإنما ذلك يكون بثلاثة أمور، أولها: تحقيق تكبيرة الإحرام ابتداءً، حيث يكون شهود العبد لحقيقتها تخلصا من مؤثرات كل الأغيار، وإشهادا للقلب مقامَ الوقوف بين يدي الواحد القهار! وأما الثاني: فهو شهود مقام ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ - عند قراءة الفاتحة - بما هو تحقيقٌ عميقٌ لإخلاص العبادة لله رب العالمين، وحده دون سواه، وبما هو تجميعٌ للقلب على توحيد المعبودية في ذات الله جل علاه. وأما الثالث: فهو تحقيق الخضوع في هيئتي السجود والركوع؛ لتذوق مواجيد العَبْدِيَّةِ لله. وذلك مفض إلى مشاهدة معاني كل حركات الصلاة وتسبيحاتها، فإن لكل هيئة مَقَاماً ولكل عبارة حالاً. ذلك أنه إذا استقامت هذه الثلاثة للعبد في صلاته استقام له كل أفعالها وأقوالها؛ لِمَا لتلك من تأثير كبير على

---

17 متفق عليه.

18 رواه الحاكم والطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير. وقد رُوي نحو ذلك بطرق شتى في الصحيحين وغيرهما.

صلاح باقيها قولا وعملا؛ وبذلك تكون الصلاةُ وِرْداً تربويا حقيقيا، ينهى صاحبَه عن الفحشاء والمنكر فعلاً، ويعرج به عبر منازل الإيمان. ولا معراج أسرع في الوصول إلى الله من الصلاة!

ومما يعطي للصلاة عمقَها الروحي عُمْرَانُ سجودِها – بعد التسبيح – بخالص الدعاء! وإنه لا يذوق معنى السجود حقا، ولا يستفيد من أنواره الفياضة على القلب، إلا مَنْ وَضَعَ جبهته على الأرض خاضعا لله، ومتذللا بين يديه تعالى بِأَحَرِّ الدعواتِ وأَخْلَصِهَا! وحَرِيٌّ بالمؤمن أن يذكر هَدْيَ النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «أَقْرَبُ ما يَكُونُ العبدُ من رَبِّهِ وهو ساجدٌ؛ فأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ!»([19]) وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « فأمَّا الركوعُ فَعَظِّمُوا فيهِ الرَّبَّ! وأمَّا السُّجُودُ فاجْتَهِدُوا في الدُّعَاءِ؛ فَقَمَنٌ أنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ!»([20]).

وأما التزام **رباط الصلاة** فإنما القصد به المساجد حيثما كانت. وذلك ببذل غاية الوسع لأداء الصلاة المفروضة بها. قال اللهُ جَلَّ عُلاه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[النور:36 ـ 38]. ذلك ما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالرباط)، في حديثه المذكور قبل.

الالتزام الثاني: في المختار من الذِّكْرِ العَدَدِيِّ

صيغ الأذكار اللسانية الواردة في السنة الصحيحة كثير، وللمؤمن أن يختار منها ما يشاء، على حسب حاجته وعلته، إذ لكل داء دواء. وهذا نوع من تحقيق المناط الخاص، كما عبر عنه الإمام الشاطبي رحمه الله. إلا أنه ثبت باستقراء تلك الصيغ والأذكار، أن منها ما يمكن اعتباره أصولاً للذكر في الإسلام، مما اطرد العمل به، أو تواتر الأمر به في نصوص القرآن الكريم وبيانات السنة النبوية الصحيحة، ومما اشتهر محكيا في كتاب الله على ألسنة

---

19 رواه مسلم.

20 رواه مسلم. وقوله: "قَمَنٌ"، معناه: جَدِيرٌ، وحَرِيٌّ.

الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومما مُدِحُوا بالتزامه والمداومة عليه بالغدو والآصال. وصيغه جميعها – باختلاف عباراتها – تدور على الإجمال حول أربعة أصول:

أولها: الاستغفار، وثانيها: التهليل، وثالثها: التسبيح، ورابعها: الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم.([21])

ولا شك أن غيرها من الأذكار النبوية كثير، لكننا نحسب أن هذه المحاور الأربعة المذكورة — لأصليتها، ولتواتر الأمر والعمل بها – هي مما لا يجمل بالمؤمن أن تخلو أوراده منه. ومن هنا كان لك – أخي المحب في الله – أن تتوسع ما شئت في الذكر، على حسب حاجتك وطبيعة علتك؛ بشرط الالتزام بالمنهج المسنون قولاً وعملاً. عسى أن تكون على الفطرة.

وعليه؛ فلك أن تختار من صيغ الأصول الأربعة الصيغ النبوية التالية، تركب منها لنفسك وردا يوميا، وذلك على نحو ما يلي:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا. لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ. وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.﴾[الروم:29-31].([22])

---

[21] ن. ذلك مفصلا بأدلته في رسالة ميثاق العهد: 145.

[22] يجوز للمؤمن أن يختار آية من كتاب الله، أو سورة، يلتزم قراءتها يوميا أو كثيرا؛ إذا وجد فيها مناسبة لحاله أو علاجا لدائه، أو لعصره. كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: (كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح بسورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح: "قل هو الله أحد"، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها. وكان يصنع ذلك في كل ركعة! فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذا السورة، ثم لا ترى أنك تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها! إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم! وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي – صلى الله عليه وسلم – أخبروه الخبر، فقال: "يا

– اللَّهُـمَّ أَنْـتَ رَبِّي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عليَّ وأبُوءُ بِذَنْبِي، فاغْفِرْ لِي فإنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ.(1 مرة)([23]).

– أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه. (1 مرة)([24]).

– أستغفر الله وأتوب إليه. (100 مرة)([25]).

– لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (10 مرات)([26]).

فلان! ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، ويحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟" فقال: "إني أحبها!" فقال صلى الله عليه وسلم: "حبك إياها أدخلك الجنة!") رواه البخاري.

ونحن نرى أن في آيات الفطرة المذكورة أعلاه علاجا مهما، وترياقا عظيما لداء الانحراف المنهاجي عن الفطرة الإيمانية في هذا العصر. فيحسن لذلك الإكثار من تلاوتها والاعتصام بهداها تزكيةً وتدبراً.

[23] عن شداد بن أوس رضي اللّه عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سَيِّدُ الاسْتِغْفارِ أنْ يقُولَ العَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إلَهَ إلاَّ أَنْتَ..."إلخ، (كما هو مذكور أعلاه) فقال صلى الله عليه وسلم بعدها: "مَنْ قالَهَا بالنَّهارِ مُوقِناً بِها فَماتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ! وَمَنْ قالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ موقِنٌ بِها فَمَاتَ قَبْلَ أنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ!"رواه البخاري.

[24] عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفرت ذنوبه وإن كان قد فرَّ من الزحف!) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ والحاكم وقال حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني أيضا في صحيح الترمذي: 172/3.

[25] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: (واللَّه إني لأستغفر اللَّه وأتوب إليه في اليوم أكثر مِنْ سبعين مرة!) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وقال صلى الله عليه وسلم: (استغفروا ربكم إني استغفر الله و أتوب إليه كل يوم مائة مرة!). رواه البغوي، وصححه الألباني. انظر حديث رقم: 944 في صحيح الجامع. وقال صلى الله عليه وسلم: (إنه لَيُغَانُّ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة!) رواه مسلم.

[26] عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير الدعاء يوم عرفة. وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير".

- لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ (3 مرات)([27]).
- اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيراً، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وأصِيلاً (3 مرات)([28]).

رواه الترمذي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم : 3274. وعن عمارة بن شبيب السبائي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (مَنْ قَالَ: "لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي ويُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"؛ عَشْرَ مراتٍ، علَى إِثْرِ الْمَغْرِبِ؛ بَعَثَ اللهُ مَسْلَحَةً يَحْفَظُونَهُ من الشَّيطانِ حتى يُصْبِحَ، وَكَتبَ اللهُ لَهُ بِهَا عشرَ حسناتٍ مُوجِبَاتٍ، ومَحَا عنه عَشْرَ سَيِّئَاتٍ مُوبِقَاتٍ، وكانتْ له بِعِدْلِ عشرِ رِقَابٍ مُؤمِنَاتٍ!) رواه الترمذي وحسنه. ثم حسنه الألباني في صحيح الترمذي وفي صحيح الترغيب والترهيب. وفي رواية أبي أيوب الأنصاري: أن من قالهن حين يصبح (كُنَّ لَهُ مَسْلَحَةً مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ! وَلَمْ يَعْمَلْ يَوْمَئِذٍ عَمَلاً يَقْهَرُهُنَّ! فَإِنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي؛ فَمِثْلُ ذَلِكَ!) رواه أحمد والطبراني. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط، بينما صححه الشيخ الألباني. وقد روي معناه بطرق مجملة ومفصلة، صحيحة على شرط البخاري ومسلم، كليهما أو أحدهما، فقد صح عند أحمد من حديث أبي هريرة وغيره من الصحابة مرفوعا، وهو وارد بصيغ متقاربة –كلها صحيحة – عند الترمذي والنسائي وابن حبان والطبراني. وقد فصلنا في تخريج طرقه بكتابنا ميثاق العهد.

[27] وقد ورد في فضلها العظيم أحاديث كثيرة بلغت بمجموعها حد التواتر، منها ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم). وأنا خلف دابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمعني وأنا أقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، فقال لي: "يا عبد الله بن قيس!" قلت: لبيك يا رسول الله! قال: "ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة؟" قلت: بلى يا رسول الله! فداك أبي وأمي! قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله!") متفق عليه. وقد فصلنا في تخريج أحاديثها الأخرى في ميثاق العهد.

[28] عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إذْ قالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: "اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيراً، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وأصِيلاً". فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: مَنِ القَائِلُ كَذَا وَكَذَا؟ فَقالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ أَنَا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: عَجِبْتُ لَهَا فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ! قالَ ابنُ عُمَر: مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهن مِنْ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم» رواه مسلم.

– سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، ورِضَا نفسِه، وزِنَةَ عرشِه، ومِدادَ كلماتِه (3 مرات).([29]).

– سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ. (50 + 50 = 100)([30]).

– اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ علَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آل سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كما بَارَكْتَ على سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وعلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، فِي العَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.(1 مرة)([31]).

– اللَّهُمَّ صَلِّ وبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وسَلِّمْ تَسْلِيماً. (10 مرات).

---

[29] سبق تخريجه.

[30] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ على اللِّسانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمَنِ: "سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ") متفق عليه. و قال أيضا: (من قال: "سُبْحَانَ اللَّه وبحمده" في يوم مائة مرة؛ حُطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر!)(متفق عليه).

[31] هذه صيغة الصلاة الإبراهيمية، مختارة ومختصرة من عدة صيغ في الصحيحين وفي غيرهما. منها ما أخرجاه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقلت: بلى، فأهدها لي، فقال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهلَ البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم، قال: (قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ...إلخ) متفق عليه.

وفضل الصلاة على سيدنا محمد عظيم جدا، وهي مفتاح خير كبير، وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرا)(رواه مسلم). وقوله صلى الله عليه وسلم: (من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات ورفع له عشر درجات.) رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والنسائي والحاكم، وصححه الألباني. انظر حديث رقم: 6359 في صحيح الجامع. وقوله صلى الله عليه وسلم: (كل دعاء محجوب حتى يُصَلَّى على النبي صلى الله عليه وسلم وآل محمد!) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس، كما رواه البيهقي عن علي موقوفا. وحسنه الألباني. انظر حديث رقم: 4523 في صحيح الجامع. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، عن الرواية الموقوفة علَى عَلِيٍّ رضي الله عنه: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

– يَاحَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ! أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ! يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ!(3 مرات)([32]).

– وَارْضَ اللَّهُمَّ عن ساداتِنا أصحابِ رسولِ الله أجمعين، خصوصاً الأنصارَ والمهاجرين، والخلفاءَ الراشدين، أُمَرَاءَ المؤمنين: أبَا بَكْرٍ، وعُمَرَ، وعُثْمَانَ، وعَلِيّاً. وعلَى كُلِّ من اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ، واقْتَدَى بِهَدْيِهِمْ، من التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم انفعنا بمحبتهم، وثبتنا على سنتهم، ولا تخالف بنا عن نهجهم، واحشرنا في زمرتهم، مع رسولك الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات والتسليم.

اللهم اجعلنا على هُدَاهُ ثابتين، لاَ مُبَدِّلِينَ ولاَ مُغَيِّرِينَ، حتى نلقاك مُقْبِلِينَ على وجهك الكريم، تائبينَ مُتَطَهِّرِينَ، رَاضِينَ مَرْضِيِّينَ، برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ يَا رَبَّ العالمينَ. آمين.

– سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك.([33])انتهى.

---

[32] عن أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة: (ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به: أن تقولي إذا أصبحت و إذا أمسيت: " يَاحَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ!") أخرجه الترمذي والنسائي والطبراني والحاكم وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير والسلسلة الصحيحة. وعنه رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كَرَبَهُ أَمْرٌ قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث!") رواه الترمذي بسند حسن. وبإسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلاَلِ والإِكْرَمِ!) وقد رواه أحمد أيضا بسند صحيح كما في صحيح الجامع. ومعنى أَلِظُّوا: الزموا وداوموا. يقال: أَلِظَ يَلِظُّ، إذا ثبت وثابر.

[33] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كفارة المجلس أن يقول العبد: "سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك") رواه الطبراني عن ابن عمرو، وعن ابن مسعود. وصححه الألباني انظر حديث رقم: 4487 في صحيح الجامع. وفي رواية النسائي والحاكم أنه صلى الله عليه وسلم قال: (فإن قالها في مجلس ذِكْرٍ كانت كالطابع يطبع عليه! ومن قالها في مجلس لغو كانت كفارة له!) رواه النسائي والحاكم عن جبير بن مطعم، وصححه الشيخ الألباني. انظر حديث رقم: 6430 في صحيح الجامع.

هذا، ولا تنس أخي المؤمن – في سياق الذكر – الالتزام بأدعية اليوم والليلة، كدعاء النوم والاستيقاظ منه، وأدعية الخروج والدخول والسفر، وسائر الأحوال، مما هو مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم.

كما أن على المؤمن أن تكون له أوقاتٌ مع ربه؛ لمناجاته جَلَّ جَلاَلُهُ، ورفع أكف الضراعة إليه تعالى، بالأدعية التي يجد فيها العبدُ علاجا لقلبه وغذاء لروحه. ولا يجوز لأهل الدعوة خاصة، أن تخلو حياتهم من هذا! إذِ الدعاء هو من أهم الزاد اليومي للعبد السائر إلى الله، ومن أهم أسباب الفتح والنصر.([34]) وقد ثبتت في ذلك أحاديث وفيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ!»([35]). وقد فصلنا في تأصيل هذا – في غير هذا الموطن – بما فيه الكفاية إن شاء الله.([36])

الالتزام الثالث: مقاطعة آلهة العصر الأربعة.

وأولها: الشركيات والخرافيات. ثانيها: المال الحرام بكل أصنافه. ثالثها: الزنى ومقدماته، وأخصها العري الفاحش، والنظر الحرام، ثم بذيء الكلام. رابعها: الخمر والمخدرات وسائر المسكرات.

وقد جعلنا الأمور الثلاثة الأخيرة (المال الحرام، والزنى، والخمر) ضمن آلهة العصر إلى جانب الشركيات، رغم أن تلك من أمور العادات والمعاملات؛ وذلك لما نعلمه من تضخم الابتلاء بها في هذا الزمان، ومن صيرورة التعاطي لها بين كثير من الناس إلى معنى الوثنية الأهوائية، بما جعلها تنتصب في الوجدان الاجتماعي آلهة معنوية، تصد الناس عن عبادة الله، وعن إخلاص الدين له، وحده دون سواه! وذلك في حقيقة الأمر ليس بجديد، بل هو مما بيَّنه النبي – صلى الله عليه وسلم – في السنة النبوية الصحيحة؛ إذ التعاطي لشرب الخمر كان عند

---

[34] وقد جمعنا في ذلك رسالتين صغيرتين، انتقينا أدعيتهما من القرآن الكريم والسنة النبوية. الأولى: هي "ميثاق العهد"، وقد صدرت طبعتها الأولى. والثانية: هي "كاشف الأحزان"، ونحن نعدها للطبع إن شاء الله.

[35] أخرجه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، والحاكم عن النعمان بن بشير مرفوعا. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: 3407.

[36] ن. رسالتنا: "كاشف الأحزان".

العرب قديما عملا وثنيا، بما ذكرنا من معنى. قال عليه الصلاة والسلام: «شَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ! وشَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ اللاَّتِ والعُزَّى!»([37]) وهو الداء الذي صارت إليه الأحوال في انتشار الزنى والتفسخ الخلقي، وتقديس المال الحرام! حتى صار لدى كثير من الناس من الإدمان على ذلك ما يصعب الانفكاك عنه! إذْ عبدوا فيه من أهوائهم وشهواتهم أوثانا من دون الله! وبيان ذلك كما يلي:

فأما الشِّرْكِيَّاتُ والخُرَافِيَّاتُ: فهي المعتقدات الباطلة، التي تخرم إخلاص الدين لله، وتعكر صفاء التوحيد، والتي ما تزال تعم بها البلوى بين كثير من الناس اليوم، خاصتهم وعامتهم، فتخرم إخلاصهم، وتشوه فطرتهم، وتخرب دينهم، عقيدةً وعملاً.

والبراءة منها تكون بعدم اعتقاد تأثير أحد غير الله في الكون وسائر الخلائق، نفعا أو ضرا، ثم عدم التوجه إلى أحد سواه بالاستغاثة والدعاء رَغَباً أو رَهَباً. وذلك هو الإخلاص الذي أمرنا اللهُ ورسولُه - صلى الله عليه وسلم – باعتقاده، ومجاهدة النفس للتحقق بمقتضياته العملية والخلقية. وهو الحقيقة الإيمانية العظمى التي يجب أن تكون سارية في دين المسلم كله، عقيدةً وشريعةً، كسريان السمن في اللبن، وكانتشار الروح في الجسد. وذلك هو أساس معنى الفطرة التي فَطَرَ اللهُ الناسَ عليها، والتي عليها مدار دعوة الإسلام.

ويتحقق ذلك بإفراد الله - جَلَّ جلالُه - بما تقتضيه ربوبيته تعالى، وعدم الإشراك به في شيء من ذلك، خَلْقاً وتقديراً ورعايةً وتدبيراً. فلا دخل لأحد من خلقه في شؤون ربوبيته تعالى. كما يتحقق ذلك بإفراده وحده سبحانه بالعبادة والاستعانة، والتوجه إليه وحده بالطَّلَبِ والرَّغَبِ، لا إلى أحد من خلقه، مهما عَلَتْ منزلته عند الله، سواء في ذلك الأنبياء والصِّدِّيقُونَ، والملائكة المقرَّبون، والأولياء الصالحون، وكذلك الأموات والأحياء، والإنس والجن، فكلهم جميعا عبيدٌ لله، فقراء إليه تعالى. ولا أحد منهم يغني عن أحد من الله شيئا! ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيئِينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً. قُلُ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً. أُولَئِكَ

[37] أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو مرفوعا. وصححه الألباني، حديث رقم: 3701 في صحيح الجامع.

الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً][الإسراء: 55-57].

كما يتحقق ذلك أيضا بعدم تقديم شيءٍ من النُّسُكِ لأحد غير الله. ومعنى النُّسُكِ: هو الذبح المقصود به التعبد والتقرب إلى المذبوح له؛ قصد نيل رضاه على سبيل التعبد، أو لقضاء الحوائج ودفع المضار، وما شابه ذلك من معاني العبادة التي تكون بتقديم القرابين من الأنعام بين يدي المعبود، مما يعتبر اللجوء فيه إلى غير الله ضربا من ضروب الشرك المحبط للأعمال، والعياذ بالله. ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ وَمَمَاتِيَ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ][الأنعام: 162-163]. ولا ينبغي أن تستهين بشيء من ذلك مهما صغر، أعني سواء كان القُرْبَانُ المذبوح طيرا أو تيسا أو ثورا، وسواء كان على أعتاب جني أو إنسي، حي أو ميت، فكل ذلك شرك خطير، مُورِدٌ لصاحبه مورد الهلاك، إلا أن يتوب توبة نصوحا.

ثم يتحقق ذلك أيضا بعدم الالتجاء إلى الدَّجَاجِلَةِ، من السَّحَرَةِ والكَهَنَةِ والعَرَّافِينَ والمشعوذين، ممن يدعي القدرة على كشف المغيَّبات، والاطلاع على المستقبليات، والأبراج الخرافيات، وسائر ضروب "المشاهدات" الشيطانية. أو ممن يدعي القدرة على التأثير السحري في الأشخاص؛ باستجلاب المحبة القهرية أو الكراهية القسرية، منهم أو إليهم. أو ممن يدعي القدرة على العلاج من الأمراض المزمنة والمستعصية بوسائل شيطانية! وكذا عدم الاغترار بالتوهمات التخييلية، التي تناقض قواطع الكتاب والسنة في الاعتقاد السليم، والتي قد تحصل لبعض المتصدرين للمجال الديني والدعوي، أو ممن اشتهروا بالتدين المزيف، من بعض جهلة العباد، الذين أوقعهم الشيطان في شِرَاكِهِ من حيث لا يعلمون! فكل شيء مما يصدر عن هؤلاء وأولئك، يجب عرضه على ميزان العلم الشرعي، ورده إلى العلماء الراسخين، والحكماء الربانيين، المتحققين بعلوم الشريعة ومقاصدها، أصولها وفروعها، وعدم المغامرة بالاستجابة في شيء من ذلك إلى نوازع الشهوات والأهواء! وإنما المؤمنُ العاقلُ، الكَيِّسُ الفَطِنُ، هو من لا يقامر بمصيره الأخروي في قضايا العقائد وأصول الإيمان والإخلاص!

فكل ذلك من الكبائر والموبقات المحبطة للأعمال والمخربة للدين! فلا يجوز الاستهانة بشيء منها أبدا! فإنما هي سُبُلُ الشيطان يُضِلُّ بها كثيرا من الخلق، وينحرف بهم عن الصراط

المستقيم، ويستجلب لهم غضب الله والعياذ بالله! فسلامة الإيمان وصحة الاعتقاد، هي أولى خطوات السير إلى الله، لا يسلم ما بعدها أبداً إذا كانت هي على غير الاتجاه الصحيح! فاحرص أخي المؤمن على تصفية هذه القضية، بجعل الدين كله لله، ولله وحده دون سواه! قولاً وعملاً. ولا تغامر بالدخول في شيء من ذلك، ولا باللجوء إليه أو إلى أصحابه، ولو على سبيل التسلية أو التجريب! فالنصوص الشرعية شديدة في النهي عن كل ذلك جِدِّهِ وهَزْلِهِ! وإنما هي موبقات وظلمات، بعضها فوق بعض! ما تزال تستدرج صاحبها من الهزل إلى الجد، ومن القليل إلى الكثير، ومن التجريب إلى الإدمان، حتى تكبه على وجهه في النار! وإنما المحفوظ من حفظه الله.

وأما المال الحرام فإنه يمحق البركة ويخرب عمران الروح، ويمنع استجابة الدعاء، وتُغلق دون صاحبه أبواب السماء! ذلك أن الانطلاق في مدارج السير إلى الله مشروط بتصفية الأرزاق من شبهات الحرام! وبالتحري في تناول الطيبات من الرزق؛ لأن الطيب وحده يغذي الروح بعزائم الإقبال على الله، والتجرد للعمل الصالح. وكل لقمة من رزق حرام لا تكون في جوف صاحبها إلا مجلبة للانتكاس والارتكاس! وعُشّاً للشيطان في قلب صاحبها وتقوية لسلطانه على النفس! فلا تكون مدافعة وساوسه ونزغاته بعدها إلا أشد على النفس وأنكى! والعمل الصالح نبات خير، لكنه لا ينبت إلا بتربة طيبة وهو الرزق الطيب الحلال! فإن وُضِعَتْ بَذْرَتُهُ فيه كان ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا!﴾[إبراهيم:25] وإن وُضِعَتْ بذرتُه في نفس تغذت من مال خبيث لم ينتج إلا شوكا وحطبا!

تلك معالم نورانية من توجيه النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا! وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[المؤمنون:51] وَقَالَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[البقرة:172]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى

السَّمَاءِ" يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»([38])

لاَ تَأْكُلِ الرِّبَا! فإنَّهُ شَرُّ الْمَالِ الْحَرَامِ!

المال الحرام: هو كل كسب حازه الإنسان على غير وجه مشروع. مما نتج عن الغصب، والرشوة، والغبن في البيع والغش فيه، والاستفادة المالية من المحرمات المطعومة والمشروبة، والنجسات والمتنجسات، إنتاجا وبيعا وخدمات. وكذلك أكل أموال الناس بالباطل، وبيع الأعراض، وحلوان الكاهن والساحر والعراف. وسائر أنواع السحت، وكل ما لا يصح تملكه، مما حرمه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

إلا أن شر ذلك جميعا هو الربا! فالربا إعلان للحرب على الله! ومن حَارَبَ اللهَ حَارَبَهُ اللهُ! ومن حَارَبَهُ اللهُ – يَا وَيْلَهُ! – أَهْلَكَهُ! وألحق به الخرابَ في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة والعياذ بالله! وإن المرء ليظن أنه بالربا قد جمع وعَمَّرَ وبَنَى! ذلك ما قد يبدو له في ظاهر الأمر، لكن الله تعالى له بالمرصاد، إذ يسلط عليه من المصائب والبلايا في نفسه وأسرته وحياته، ما يجعلُ مالَه عليه شقاءً ما بعده من شقاء! وقد يُخرج له من نفسه أو أبنائه من يخرب عليه دنياه قبل آخرته! أو يسلط عليه من الأمراض الفتاكة ما يجعله يذوي شيئا فشيئا، فلا ينفعه مالُه ولا جاهه وسلطانه! أو يجعل خاتمته إلى مهانة اجتماعية، ومذلة دنيوية، تقوده إلى السجن أو إلى أي هاوية يلقى فيها حتفه! إن من حارب اللهَ خاسرٌ لا محالة! وعجيب من لا يقدر اللهَ حق قَدْرِه! ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ!﴾[الزمر: 67]

وما رأيت في كتاب الله ولا في سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عقوبةً ولا نذارةً – بعد الشرك بالله – أشدَّ من عقوبة الربا! أَوَ لا يكفي فيها أن يبوء صاحبُها بغضب الله ولعنته؟! فلا تستقيم له دنيا ولا يسعد بآخرة! تتبعه اللعنة أينما حل وارتحل! لا يقوم له شيء إلا انهار! ولا يَعْلُو له عُمْرَانٌ إلا ضربه إعصار الخراب! فماذا بعد ذلك من مصيبة وبلاء!؟

[38] أخرجه مسلم.

وليس عبثا أن ينطق الرسول بهذا البيان الإنذاري الرهيب في حق المرابين، مبينا مَهْلَكَةَ الربا، كم هي أشد وأخطر من غيرها! وكم هي أفظع من كثير من الكبائر والموبقات! قال عليه الصلاة والسلام: «دِرْهَمٌ رِبَا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاَثِينَ زَنْيَةً!»([39]) كذا!!

وإنما العجب كل العجب! ممن يتجرؤون على الترخص - بغير موجبات شرعية - في أمْرٍ مَدَاخِلُهُ مفتوحةٌ مباشرةً على أبواب جهنم! فاقرأ هذه الآيات وتدبر! هل تجد وعيداً أشدَّ منها! قال الله جلَّ جلالُه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ! ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا. فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ. وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ! يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ! إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ! فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ!﴾[البقرة: 275-279].

ذلك هو الحق! ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ؟!﴾[يونس: 32]

وكيف لا؟ وهذه لعنةُ الله تَتْرَى على لسان رسول الله، جحيماً يُلاَحِقُ المرابين أبداً، إلا أن يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً! يستوي في ذلك آكِلُ الرِّبَا ومَنْ أعْطَى ثَمَنَهُ، ومن ضَمِنَهُ، وكل من أعان على عقوده، كتابةً وشهادةً وإدارةً، كلهم في لعنة الله سواء! ذلك صريح حديث رسول الله! ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا ومُوكِلَهُ وشَاهِدَيْهِ وكَاتِبَهُ! هُمْ فِيهِ

---

[39] أخرجه أحمد والطبراني عن عبدالله بن حنظلة مرفوعاً. وصححه الألباني. حديث رقم : 3375 في صحيح الجامع.

سَواءٌ!»«[40] كما يستوي في ذلك من طلب الزيادة الربوية ومن أعطاها! وهو نص الحديث الصحيح: «فَمَنْ زَادَ أوِ اسْتَزَادَ فَقَدْ أرْبَى! وَالآخِذُ وَالْمُعْطِي سَوَاءٌ!»([41])

والعجيب – بعد هذا وذاك – أن تجد بعض المشتغلين في صف "العمل الإسلامي" يتطاولون على هذا الحد الرباني العظيم! لِيُحِلُّوا مَا حرم الله! فيصورون النوازل كما يشتهون للعلماء، ويخرجونها لهم إخراجا حتى تُوهم الضرورةَ إيهاما؛ لاستصدار رخصةٍ في أمر عظيم! ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ!﴾[النساء:142] وكان أولى بالمحسوبين على أهل الفضل والصلاح، أن يأخذوا لأنفسهم في مثل هذا بأصل الاحتياط في الدين، وبمقام الورع! وفي الحديث الصحيح: «خَيْرُ دِينِكُم الوَرَعُ!»([42])

ومن الأمور الربوية التي عم جهلها في هذا العصر، حتى لابسها بعض أهل الدين والصلاح! ما يعرف عند الفقهاء بـ"الربويات الستة". وهي: (الذهب والفضة، والقمح، والشعير، والتمر، والملح). وما ينوب عنها من النقديات المالية، ومن المطعومات الاقتياتية، مما هو داخل في معنى "المواد الضرورية للتغذية"، مما جرت به الأعراف والعادات في هذا الزمان، على حسب المناطق والشعوب. وهو ما ورد متواترَ المعنى في عدة أحاديث نبوية صحيحة، منها هذا النص الجامع المانع، من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذَّهَبُ بَالذَّهَبِ، والفِضَّةُ بالفِضَّةِ، والْبُرُّ بِالْبُرِّ، والشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، والتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، والْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلاً بِمِثْلٍ، يَداً بِيَدٍ، فَمَنْ زَادَ أوِ اسْتَزَادَ فَقَدْ أرْبَى! وَالآخِذُ وَالْمُعْطِي سَواءٌ!»([43])

---

40 أخرجه مسلم.

41 أخرجه مسلم.

42 أخرجه البزار، والطبراني في الأوسط، والحاكم عن حذيفة مرفوعا، كما أخرجه الحاكم عن سعد مرفوعا أيضا. وصححه الألباني، حديث رقم : 4214 في صحيح الجامع.

43 أخرجه مسلم. ومعناه الإجمالي: أنه لا يجوز استبدال ذهب بذهب، ولا فضة بفضة، إلا بشرطين اثنين. الأول: أن يكونا متساويين، والثاني: أن يتم التبادل يدا بيد، أي بدون تأخير في القبض أو العطاء من أحد الطرفين. وكذلك الأمر في سائر المطعومات الأربعة، إذا كانت البضاعة من صنف واحد، أي قمحا بقمح، أو شعيرا بشعير...إلخ. أما إذا اختلفت الأصناف كذهب بفضة، أو كقمح بشعير أو بتمر، فيجوز التفاضل أي بزيادة في أحد الطرفين، ولكن لا تجوز النسيئة، وهي تأخير أحدهما قبضا أو عطاء. بل لا بد من تمام التقابض في المجلس.

وعليه؛ فإنه لا سير إلى الله إلا بعد حسم هذا مع النفس! ولا انطلاق في مدارج التربية والتزكية إلا بعد المفاصلة القاطعة لمداخل المال الحرام أنى كان! وليكن شعارك في تحقيق هذا التحدي العظيم – تخليةً وتحليةً – قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى! وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا! لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى!﴾[طه:131-132].

وأما الزنى والنظر الحرام فإنه يحرق الأسرار ويسلب الأنوار، ويطمس البصيرة، ويكون سببا في خراب الدنيا والدين! ولذلك فإن الله جلَّ جلالُه نهى المؤمنين عن الاقتراب من الزنى بله الوقوع فيه! فالمؤمن الكيس الفطن يتجنب الزنى المعنوي قبل الزنى الحسي! وذلك بمدافعة كل الخواطر التي تزين للنفس الشهوات الحرام، وباستقذار الفاحشة أنى كان شكلها، استقذاراً يجعلها تثير الغثيان في النفس، وتبعث بالنتانة! فلا تقع مظاهر الفسق من عري أو كلام بذيء، أو أيٍّ من خوارم الحياء، في قلب المؤمن إلا بغيضةً ممجوجةً! وذلك كله مجموع في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً!﴾[الإسراء:32] وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم معنى قرب الزنى بحديثه الحكيم الذي يرويه أَبو هُرَيْرَةَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزنى، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ! فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ! وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ! وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي! وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ!»([44])

ويقاس على الذهب والفضة النقود المعاصرة، فما يشترط في الصنف الواحد منهما يشترط في الصنف الواحد من العملات الآن. وكذلك إذا اختلفت الأصناف النقدية كاستبدال عملة بأخرى غيرها، جاز آنئذ التفاضل وامتنع التأخير. كما يُقاس الْمُقْتَاتُ الْمُدَّخَرُ من المواد الغذائية المختلفة اليوم على ما ذُكر في الحديث، كالأرز مثلا بالنسبة للبلاد التي تقتات به، فيجري عليه نفس الحكم مع نفسه، ومع غيره من المواد الغذائية الضرورية لقوت الناس، على حسب العرف والعادة الجارية. فكل ذلك يجري على القاعدة المذكورة أعلاه.

هذا معناه العام على الإجمال دون تفصيل. وإنما القصد ههنا التنبيه. وفيه اجتهاداتٌ مختلفةٌ تعليلاً وتنزيلاً، لدى القدماءِ والْمُحْدَثِينَ. وله نوازل لا تنحصر، والواجب على المؤمن أن يرجع فيما يُلِمُّ بِهِ من ذلك إلى استفتاء ثقاة العلماء. فلا يُقْدِمُ على عَمَلٍ حتى يعلم حكم الله فيه.

44 متفق عليه.

وهو بيان عجيب منه – صلى الله عليه وسلم – لمسلك المجاهدة، والتزكية للنفس، فيما يتعلق بأبواب الشهوات الحرام، مما وجب على المؤمن أن يتنزه عنه ويترفع.

وَلِشِدَّةِ ما يُبغض الله الزنى وأهله فقد أعد لهم عذابا في الجحيم، ليس كأي عذابٍ والعياذ بالله! وقد عَرَضَ النبي – صلى الله عليه وسلم – لقطة واحدة من مشهد تعذيب الزناة رجالاً ونساءً! تملأ القلب هولا وفزعا! وذلك في حديث سمرة بن جندب في الرؤيا، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا! فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا! فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا! وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ!» ثم قال له الملَكان المكلفان بتطوافه: أمَّا «الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ!»([45])

النظرة الحرام تقطع طريق الوصول:

ويعتبر النظر الحرام من أخطر مصائد الشيطان والعياذ بالله! فهو زيادة على ما يمكن أن يؤدي إليه من مهالك، يخرب الرصيد الإيماني للعبد فيما يبنيه من منازل عبر سلوكه إلى الله، وما يرتيقه من مقامات عبر عروجه نحو الوصول إلى مولاه!

ثم هو يثبط المبتدئ عن الانطلاق في شق طريق الصلاح، والسير الجاد إلى الله! كلما أراد البدء وجد ثقلا، وهو لا يدري ما يثقله عن المساجد والصلوات، والتخلص من وساوس الشيطان والشهوات! ولو جاهد نفسَه على غض بصره عن محارم الله، لوجد خفة في روحه، وقوة في عزيمته، ولاَنْتَصَرَ على حبال الشيطان التي تشده إلى التراب شدّاً!

فالنظر الحرام يحرق حصائد الصلاح، ويمنع تحليق الجناح! ثم يجعل عزيمة السير إلى الله – في رمشة عين – رماداً تذروه الرياح! ومن هنا فليس عبثا أن تجد التحذير منه صريحا في القرآن الكريم وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام! قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ! ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ! وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ! وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا!﴾[النور: 30-31] وهذا أمر قد استهان به كثير من المسلمين، ولكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يستهن به قط! بل قال في وصيته الحكيمة لعلي بن أبي طالب

---

45 متفق عليه.

رضي الله عنه وأرضاه: «يَا عَلِيُّ! لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ! فإِنَّ لَكَ الأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ!»([46])

النظرةُ الحرامُ تَخْرِمُ العَالِمَ سِرَّهُ!

ومن أجمل ما نُقِلَ عن بديع الزمان سعيد النورسي - رحمه الله - في هذا الأمر حكمةٌ رفيعةٌ، تُشَدُّ إلى مثلها الرحال! وذلك أنه - رحمه الله - كان ضيفا عند بعض الأعيان من محبي العلم والعلماء، لمدة طويلة تزيد على بضعة أشهر، وكان لذلك الرجل بنات، يدخلن ويخرجن، والنورسي آنئذ في عز شبابه! فجاء عالِمٌ آخرُ فنزل ضيفا ليومين أو ثلاث بنفس المكان، فجعل يحصي البنات ويميز الصغرى من الكبرى، فوجد بديعَ الزمان جاهلا بكل تلك التفاصيل والأوصاف، فسأله: لماذا لا تنظر إليهن؟ فأجابه النورسي بهذه الحكمة البالغة: (**النظرةُ الحرامُ تَخْرِمُ العَالِمَ سِرَّهُ!**)

والسبب في ذلك أن النظر الحرام في مثل هذه الأحوال خيانة! خيانة للعلم، وخيانة للدين، وخيانة للدعوة جميعا! ثم هو خيانة لأهل البيت ولأعراضهم! وما كان للخائن أن تكون له من أسرار!

وبهذا فسر ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ!﴾[غافر: 19]([47])

وقد ثبت - كما رأيت - بنصوص الكتاب والسنة، وكذلك بأقوال أهل العلم، وأصحاب الخبرة بمسالك التربية الإيمانية أن النظر الحرام من أخطر قُطَّاعِ الطرق على السالكين إلى الرحمن! وإنما المعصوم من عصمه الله!

---

[46] أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، عن بريدة مرفوعا. وحسنه الألباني. حديث رقم: 7953 في صحيح الجامع.

[47] قال ابن عباس: (في قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾: هو الرجلُ يدخل على أهل البيتِ بيتَهم، وفيهم المرأة الحسناء (...) فإذا غفلوا لحظ إليها! فإذا فطنوا غض بصره عنها! فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض!) تفسير ابن كثير: 76/4.

وأما الخمر وما يلحق بها من مسكرات ومخدرات فإنها تمنع سير الروح أصلاً، وتحبسه ابتداءً. لأن صاحبها قد أسلم نفسه لوثنية هواه! وما كان لمن لم يَخْلُصْ هواهُ لله الواحد القهار أن تفتح له الأبواب! فالمتلطخ بالرجس مرفوض في الملأ الأعلى! كذلك وصفها الله في محكم كتابه، ولا عبث في الدين بالتمني الكاذب على الله! قال جلَّ عُلاه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ!﴾[المائدة: 90]. وإنه والله لا فلاح ولا نجاح للمسلم إلا بالاجتناب التام للخمر، والمقاطعة الشاملة لها، ولمسالكها، ولخدماتها، ولكل ما ينتج عنها أو بسببها من أرباح وأموال! ومن عَوَّلَ على السير إلى الله والوصول إليه تعالى، وهو ما يزال متلبسا بنجاستها، فقد غره الشيطان وتمنى على الله الأماني!

وقد سبق حديثُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في حق شاربها، بما وصفه من رهيب الصفات! فقال صلى الله عليه وسلم: «شَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ! وشَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ اللاَّتِ والعُزَّى!»([48]) ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: «مُدْمِنُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ!»([49])

وقد عرض عليه الصلاة والسلام ههنا أيضا لقطة من مشهد آخر، لمآل شارب الخمر، وما يخسره من رصيده العملي، فيما قد يكون له من حسنات سابقة أو مرافقة! فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كُلُّ مُخَمَّرٍ خَمْرٌ. وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ! وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا بُخِسَتْ صَلاَتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا! فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ! قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ! وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لاَ يَعْرِفُ حَلاَلَهُ مِنْ حَرَامِهِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ!»([50]) ورُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ

---

[48] أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو مرفوعا. وصححه الألباني، حديث رقم: 3701 في صحيح الجامع.

[49] أخرجه البخاري في تاريخه، والبيهقي، عن أبي هريرة مرفوعا. وصححه الألباني. حديث رقم: 5861 في صحيح الجامع.

[50] أخرجه أبو دود عن ابن عباس مرفوعا. وصححه الألباني. حديث رقم: 4548 في صحيح الجامع.

وَسَلَّمَ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ وَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا! وَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ! فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا! فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ! فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا! فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ! فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدَغَةِ الْخَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رَدَغَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ!»([51])

لاَ تَفُكَّ عَنِ الخمرِ حِصَارَ الشَّرِيعَةِ!

والمطلوب من المؤمن الصادق مقاطعةُ الخمر، شرباً، وإنتاجاً، وتجارةً، وزراعةً، وخدماتٍ! أنى كانت هذه الخدمات! ولو أن يكون حارسا، ليس لها فحسب، ولكن حتى لمزارعها المخصصة لها قصداً! والنصوص في ذلك كثيرة جداً! منها قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الله لَعَنَ الخمْرَ، وعَاصِرَهَا، ومُعْتَصِرَهَا، وشَارِبَهَا، وسَاقِيَهَا، وحَامِلَهَا، والْمَحْمُولَةَ إليه، وبَائِعَهَا، ومُشْتَرِيَهَا، وآكِلَ ثَمَنِهَا!»([52]) فالمقصود بهذا الحديث ضرب حصار اقتصادي واجتماعي على الخمر مطلقاً! فلا يجوز للمسلم فَكُّ هذا الحصار بأي خدمة من الخدمات يقدمها لها، بَدْءاً بزراعتها وانتهاءً ببيعها، والترويج لها، أو إشهارها، أو شراء أي شيء من المباحات أصلاً ولكن لخدمتها! ولو كان ذلك مجرد قلم أو ورقة، لضبط حسابها! أو عجلة لإصلاح شاحنتها! وقس على هذا وذاك قياسا صحيحا مليحا وَامْضِ! فلا شيء اتُّخِذَ في سبيل إنعاشها إلاَّ وهو ملعون عند الله، على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم!

وما كان لمن تنزلت عليه اللعنة الإلهية أن ينطلق، ولا أن تُفتح له أبواب السماء؛ إلا أن يتوب إلى الله توبةً نصوحاً!

لا تجلس على مائدة يُدَارُ عليها خمر، ولو لم تكن لها شاربا!

---

[51] أخرجه ابن ماجه وأحمد والدارمي عن عبد الله بن عمرو. وصححه الألباني. حديث رقم: 6313 في صحيح الجامع.

[52] أخرجه أبو داود. والحاكم، والبيهقي، عن عبد الله بن عمر مرفوعا. وصححه الألباني. حديث رقم: 1802 في صحيح الجامع. كما أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي والضياء عن ابن عباس. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

والمؤمن الراغب فعلا في السير إلى الله وجب أن يتحلى بحساسية عالية جدا ضد الخمر وأهلها! فلا يجالسهم ولو مجرد مجالسة وهم على مائدة الخمر! بل ما وُضِعَتْ أُمُّ الخبائث بمكان إلا غادره المؤمن! إلا لضرورةٍ مُقَدَّرَةٍ بِقَدْرِهَا شرعا! فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي صلى الله عليه وسلم: «نَهَى عَنِ الْجُلُوسِ عَلَى مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ!»«[53] وقد ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بصفة الإيمان بالله واليوم الآخر! على عادته عليه الصلاة والسلام في الأمور المهمة في الدين! وهو قوله الصريح المليح: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلاَ يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ!»([54])

وبعد،

فهذه أربعة أنصاب: (الخرافيات، والمال الحرام، والزنى، والخمر)، تنتصب — في هذا العصر — أوثانا في هوى الإنسان! فتخسف بإيمانه؛ ويكون من الخاسرين والعياذ بالله، إلا أن يتغمده الله برحمته! ومن هنا فإنه لا أمل في انطلاقه، ولا في استقامة سيره، وصلاح شأنه، إلا بمقاطعتها والتبرؤ منها جميعا. وإنما الموفق من وفقه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الالتزام الرابع: إمساك اللسان عن فضول الكلام!

وهو ورد الصمت عما لا خير فيه من الكلام! وهو ملاك سائر الأعمال! إذْ بغيره لا يبقى لصاحبه دِينٌ ولا خُلُقٌ!

ولقد نَصَّ القرآنُ على أن كل ما يصدر عن الإنسان من أقوال، هي محصاة عليه إحصاءً دقيقاً! والله جلَّ جلالُه يعلم الكلمة قبل أن يتلفظ به المرء، بل يعلمها سبحانه وهي ما تزال خَطْرَةً في قلبه، أو وسوسةً في نفسه! فإذا تلفظ بها تلقفها الْمَلَكَانِ فَكُتِبَتْ له أو عليه! وذلك هو صريح قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ! إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ! مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ!﴾[ق: 16-18]

---

[53] أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم عن ابن عمر. وحسنه الألباني. حديث رقم: 6874 في صحيح الجامع.

[54] أخرجه الترمذي والحاكم عن جابر. وحسنه الألباني، حديث رقم : 6506 في صحيح الجامع.

وتواترت السنة بالتحذير من خطورة آفة اللسان، وما تجره على المؤمن من خراب الأعمال! والارتكاس الرهيب في غيابات الجحيم! فعن بلال بن الحارث – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تعالى مَا يَظُنُّ أن تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ؛ فَيَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إلى يَوْمِ القيامةِ! و إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله تعالى، مَا يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ؛ فَيَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بها سَخَطَهُ إلى يَوْمِ القيامةِ!»([55]) ومثله قوله – عليه الصلاة والسلام – في هذا النذير الرهيب: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ لا يَرَى بها بأساً يَهْوِي بها سَبْعِينَ خَرِيفاً فِي النَّارِ!»([56])

ولا أجِدُ أشدَّ نذيراً ولا أرْهَبَ تحذيراً، مما ورد في حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه – في آفة اللسان! وقد أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما يُدْخِلُهُ الجنةَ من الأعمال وما ينجيه من النار، ثم قال عليه الصلاة والسلام في خاتمته: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا! فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ – أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ – إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ!؟»([57])

ولذلك فقد أهدى عليه الصلاة والسلام للأمة هذه القاعدة اللسانية الاحتياطية الغالية! فقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ!»([58])

---

[55] أخرجه مالك، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، عن بلال بن الحارث. وصححه الألباني. حديث رقم : 1619 في صحيح الجامع.

[56] أخرجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، عن أبي هريرة. وصححه الألباني، حديث رقم : 1618 في صحيح الجامع.

[57] رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي. وقَالَ الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ". كما صححه الألباني في صحيح الجامع.

[58] متفق عليه.

وهذا جامع لكل معاني النميمة، والغيبة، ونحو هذا وذاك من محرمات الأقوال، وسائر اللَّغْوِيَّاتِ الباطلة! بَلْهَ التلفظ بالشركيات! سواء كان ذلك جِدّاً أو هزلاً! ألاَ عَصَمَ اللهُ أَلْسِنَتَنا جميعا من كل سوء!

اِحْذَرِ الْكَذِبَ فإنَّه مَرَضٌ خَطِيرٌ!

والكذب – أعاذنا الله وإياكم منه – من أسوأ آفات اللسان! والمؤمن لا يكذب! أما الداعية أو الحامل لمشروع التجديد الديني فإنه إن كذب فقد خان رسالته! وقضية الصدق والكذب هي قضية "وَلاَءٍ وبَرَاءٍ" في المجال الدعوي، لا تقبل المساومة![59] ويكفينا في ذلك نذارةُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الفاصلة الحاسمة! حيث إنه توعد الكاذب بالويل المؤكَّد! ولو كان كذبه من باب إضحاك الناس والترفيه عنهم! قال عليه الصلاة والسلام: «وَيْلٌ للذي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ؛ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ! وَيْلٌ لَهُ! وَيْلٌ لَه!»[60] وقد نقلت عائشة – رضي الله عنها – موقفه الشديد من الكذب، فقالت: «كَانَ أبْغَضُ الخُلُقِ إليهِ الكَذِبَ!»[61]

ولا وصولَ إلى الله – جلَّ جلالُه – ولا طريقَ إلى نيل رضاه إلا بالصدق. الصدق على كل حال، والصدق في كل شيء! بحيث لا يَصْدُرُ المؤمنُ في كل شأنه، كبيره وصغيره، إلا عن الصدق! قولا وفعلا، عسى أن يكون في نهاية المطاف من الصِّدِّيقِينَ! فالصِّدِّيقِيَّةُ لا تُنال بكثرة الأعمال عدداً، وإنما تنال بعمقها صدقاً، وبصفائها وِرْداً، وبإخلاصها قصداً. وذلك هو الصدق مع الله جل ثناؤه. ومن لم يصدق مع الناس لم يصدق مع الله! والعكس صحيح. فالصدقُ عُمْلَةٌ واحدةٌ، مَنْ غَشَّهَا أو دَلَّسَهَا غَشَّ في كُلِّ شيءٍ، ودَلَّسَ في كُلِّ شَيْءٍ! ولا مسلك إلى الله بغير هذا! فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ! فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا!

---

59 لا نقصد بذلك "الولاء والبراء" بالمعنى العقدي الصرف، ولكننا نقصد ولاء الثقة والتواصل أو عدمهما، في مجال العمل الإسلامي.

60 أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم، عن معاوية بن حيدة مرفوعا. وحسنه الألباني، حديث رقم : 7136 في صحيح الجامع.

61 أخرجه البيهقي عن عائشة. وصححه الألباني. حديث رقم : 4618 في صحيح الجامع.

وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ! وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا!»([62])

ولنا أن نختم هذه الالتزامات بحديث نبوي عجيب، هو عبارة عن رحلة روحية – مأذونة من لدن الرحمن – في ملكوت الغيب! صُحْبَةَ الملَكَيْنِ: جبريل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام. وذلك خلال رؤيا نبوية، ولا تكون رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم إلا حقا، بل لا تكون إلا وحيا من الله جل جلاله، وحقيقةً نبوية قطعية! رؤيا كانت عبارة عن مشاهدات ذات جلال وجمال، وسياحة في ملكوت أخروي عجيب، من مشاهد العذاب ومنازل النعيم. كلُّها عِبَرٌ وحِكَمٌ ترجع على ما ذكرنا من التزامات بالترغيب والترهيب! ذِكْرَى ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ!﴾[ق: 37]

فَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ – رضي الله عنه – أنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ، قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ! وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا! فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ! قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ! فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ! فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ! قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ انْطَلِقْ! فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا! فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا! فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا! وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ! فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ انْطَلِقْ! فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ، فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ، وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ! فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ! فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ!

[62] متفق عليه.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا! فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ وَنِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ. ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ! فِيهَا شُيُوخٌ وَشَبَابٌ.

قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ! قَالاَ: نَعَمْ.

أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ! يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ! فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ! يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ! وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُوا الرِّبَا! وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمِ، وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلاَدُ النَّاسِ. وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ. وَالدَّارُ الأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ. وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ. وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ. فَارْفَعْ رَأْسَكَ! فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالاَ: ذَاكَ مَنْزِلُكَ! قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي! قَالاَ: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ!»([63])

بصيرة في شرط الوصول

وعليه؛ فإنَّه لاَ وُصُولَ ولاَ قَبولَ في كل ذلك جميعا إلا بِشَرْطٍ أسَاسٍ، ألا وهو: مجاهدة النفس؛ للتحقق في كُلِّ مَسْلَكٍ من إخلاص القلب! وللتحقق في كل كلمة من صدق اللسان!

ذلك، وإنما الموفَّقُ مَنْ وفَّقه الله، هو وحده تعالى المستعان، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ـــــانتهى.

---

63 متفق عليه.